الفصل السابع

شعر في مدح وذم الشاي

1 ـ قصيدة الشيخ «عيسى بن محمد» يطري فيها الشاي.

2 ـ قصيدة للشاعر «حمتا بن الصادق» يمدح فيها الشاي.

3 ـ قصيدة للشاعر «سليمان الحوات» في نفس المضمون.

4 ـ قصيدة للشاعر «خليفة بن مصطفى» في نفس المضمون.

5 ـ قصيدة للشاعر «محمد أفالت» يذم فيها شرب الشاي.

مدح الشاي وذمه

لون جديد تغنى به شاعر السودان الغربي؛ ألا وهو ما يعرف بالأتاي خمر الصحراء

الرجل في جنوب الصحراء ما يهمه في يومه إلا شيئين؛ شرب الشاي الأخضر في الصباح مع صحن من اللحم المشوي. وسألت العديد من أهالي تنبكت عن تناولهم للشاي واللحم المشوي يوميا فأجابوني: وكيف لنا أن نقاوم عنت الصحراء.

والرجل الصحراوي عرف بالكرم المفرط، فأول ما يقدمه لضيفه كوب الشاي الأخضر، ولذلك فإن الشاي عندهم رمز من الرموز التي لها وقع في أنفسهم. ورجل الصحراء يستطيع أن يبقى بدون أكل لفترة من الزمن، ولكن لا يستطيع أن يبقى بدون شرب الشاي.. ولذلك نجدهم دائما يبحثون عن بديل للشاي بحرق الحلبة بدلا من الحشيشة[1] أو بحرق الزعطر.. إلخ...

فهذا شاعرنا عيسى بن محمد يطري الشاي بقصيدة تحرك بها وجدانه تتكون من خمسة عشر بيتا.

مطلعها:

إن الأتـــا لمذبـة للعـار عن كل ذي قدر من الأخيار

ويقول شاعر آخر يمدح الشاي، وهو الشاعر حمتَا بن الصادق في قصيدة تتألف من ثمانية عشر بيتا:

ألا لهف نفسي من مبيتي ليلة على القر والمفتول ناء وشاسع

(1) الحشيشة: هي المادة التي يصنع منها الشاي.

ويقول الشاعر سليمان الحوات وخليفة بن المصطفى أبيات في نفس المضمار، فأدباء الصحراء منهم من يمدح الشاي وما أكثرهم، وهناك من يذم شاربه ويعدّ شربه بدعة شنيعة، من بين هؤلاء الشعراء الفقيه محمد أفالت، وقد نظم قصيدة تتكون من تسعة أبيات مطلعها:

أتاء شاربه يلهو كسكرانا ولايزالُ من الضلال حيرانا

ورد عليه الشاعر عيسى بن محمد بقوله:

أتاي من نعم الرحمان مولانا لا ينبغي كفرها سرا وإعلانا

وما احتفل شاعر الصحراء بالشاي إلا لقيمته، ذلك أنه يشكل غذاء تفوق فائدته التغذية لتحقق نشوة خاصة، يتذوق معها الصحراوي كل معاني الأصالة والارتباط بعادات وتقاليد وتاريخ بلاده.

يقول عيسى بن محمد:

إن الأتا لمذبةٌ للعار عن كل ذي قدر من الأخيار
هو عُدة للضيف حقًا سيما من كان ذا علم وذا مقدار
فعليك بالمفتول لا تركن إلى ما دونه فحذار منه حذار[1]
لا تغترر بسواهُ من كمكركب فتعده للشرب أو للعار[2]
والزم من المفتُول أجوده وكن للماء محترسا من الأكدار
وتجنب النعناع فهو مكدرُ طعم الأتاي الأجود المختار
ولتلتزم تكميل آلة شُربهِ كالطبل والبراد والمجمار[3]
وكؤوسه والزيف والمغراج مع تنظيفها كلا من الأقذار[4]
واحذر من الإبريق فهو مكدر إلا إذا كنت في الأسفار
وإلزم إدامة شربه وقت الضحى وعشية تسلم من الإقتار

(1) المفتول : من أجود أنواع الشاي.
(2) المكركب : نوع من أنواع الشاي، والعار كلمة حسانية معناها الضيوف.
(3) الطبل والبراد والمجمار : أدوات الشاي.
(4) الزيف : المنشفة. والمغراج : أداة من أدوات الشاي.

بجماعة فضلاء يحسن حالُها ... وحديثها صاف من الإضجار
وأقمه حتما للأفاضل حيثما ... وافوك تسلك مسلك الأحرار
يارب فارزقنا حلالا واهدنا ... واغفر لنا ما كان من أوزار
ثم الصلاة مع السلام على الذي ... قد جاء بالبشرى وبالإنذار
والآل والأصحاب خير أولي النُّهى ... والتابعين أولي العلى الأبرار

* * *

ويقول حمتا بن الصادق:

ألا لهف نفسي من مبيتي ليلةً ... على القُرم والمفتول ناء وشاسعُ[1]
مبيت يضاهي ليل صبّ تدعُه ... وساوسُ تجري من لظاها المدامعُ[2]
إذا المرءُ لم يعدم شذاه فإنهُ ... تناهت لديه بالهمُوم الدوافعُ[3]
وبينا أُمني النفس وافيت فتية ... ومغراجهُم وقت الغدية طالعُ
وكاساتُهم صف على الطبل واحدٌ ... وبرادهم بين الأحبة لامعُ
كما يلمع البدر التمام وحوله ... نجوم الدراري حين تصحو المطالع
رموا فيه كيل الكأس مما تضمنت ... بوابر بحر سبقُه الشاه شائعُ[4]
وجرد ذو درعين بيضا نقية ... وخضراء ذاك الوصفُ للفضل جامعُ[5]
وتبسم في ذاك الكؤوس كأنها ... ثُغور العذارى حين تنضى البراقعُ[6]
فلما رشفتُ الكأس منها تفتقت ... ينابعُ شعرٍ من طويل هوامعُ[7]
فقالوا: أعنا بالدليل، فإننا.. ... تظللنُا منها السيوف القواطعُ
فقلت لهم يكفي لنا كل مُسكرٍ ... حرام فمفهُوم له لك شافعُ
أليس بيت الله يشربُ دائماً ... كما قاله الحجاج والله مانع
له من هوى الطاغوت لأزيد مانع ... لهم شربه كلا ولا عمر ودافع

---

(1) القرم : الضمر. وشاسع : بعيد.
(2) الصبا : العاشق. وتدعه : تدفعه دفعًا عنيفًا.
(3) شذاه : رائحته.
(4) كيل الكأس : ملؤه.
(5) ذو درعين :معناه حجر السكر في لفافتين من ورق أخضر.
(6) البراقع : جمع برقع؛ وهو ما تضعه المرأة على الرأس.
(7) هوامع.: سوائل.

ولا يقدر العاصى صلاة بدونها ... يُصلى به إلاّ علته الروادع
سوى الباطن الذي له ليس وحده ... كفيلٌ ولا منه الأتى والمجامعُ
ولا غرو أن الماء يسمع صوته ... قليلا وفي ملء السقا هُو هاجعُ
كذلك إنكار المسائل صادرٌ ... من الجهلِ، والجهالُ قدمًا تنازعُ

* * *

ويقول الشاعر سليمان الحوات:

وهيمُوا بشربكم أتاي فإنهُ ... حلال وليس في الحلالِ ملامُ
وكونُوا عليه مدمنين فإنهُ ... شفاءُ النُفُوس إن عراها سقامُ
يثير نشاطا يبسط الكفّ بالندى ... فمن ثمّ كلُ شاربيه كرامُ
إلى غير هذا من منافع جربت ... وقال بها في السالفين إمام

* * *

ويقول آخر:

شربنا كؤوسًا يعلمُ الله أنها ... تُهيج للعشاق ما في الضمائر
منعنة حمراء كالخمر طعمها ... ولا عيب فيها غير جبر الخواطرِ

* * *

ويقول خليفة بن مصطفى:

إذا لم نجد إلا النميلة مشربا ... شربنا ولم نعبأ مقالة ذى عذل[1]
فإن وُجد المفتول قُلنا لنملةٍ ... مقالتها للنَّمل في سورة النملِ

* * *

ويقول آخر:

الضيفُ دون الأتاي اليوم مُكرمهُ ... لم يجد شيئًا وإن جلت فوائدهُ
ومن سقى ضيفه الأتاي أكرمه ... ولا يعاب وإن قلت موائده
بذا جرت عادة الأيام وانسحبت ... والدهر لابد أن ترعى عوائدهُ

* * *

(1) النميلة : نوع من ورق الشاي رديء المذاق.

الفقيه محمد أفالت حرم الشاي وجعل شربه بدعة شنيعة، ونظم في ذلك قصائد منها قوله:

أتـاء شـاربه يلهـو كسكـرانـا ... ولايـزالُ مـن الضَّـلال حيـرانـا
أتـاء لَـم يـكُ مـن أفعـال سيدنا ... وتالييـه ولا مـن فعـل عُثمانـا
ولا علـيّ ولا الأصحـاب كلهـم ... والتابعـين لهـم عـدلا وإحسانـا
ولا إمـام بحمـد الله مسجـدهُ ... ولا مـن الغـرّ مـن أبنـاء موسـانـا[1]
أتـاء بدعـة أقـوام سيورثُهـم ... من بعـد مشربهـم فقـرًا وخذلانـا
وإن أتاهـم خليـلٌ ناصـحٌ لهُـم ... عضـوا أناملهـم ظلمًـا وعدوانـا
إذا أتـوا رجـلا سمحـا خلائقُـه ... ولم يـروا مغرجًـا جفـوه مجّانـا
يـذمُّ بعضُهُـم بعضًـا إذا نفـدتْ ... أوراقُهم يحسبـون العـدم حرمانـا
وهـم يمنـون والإقتـار شـيمتُهم ... عـلى الكـرام إذا يعطونهـم كانـا[2]

* * *

ورد عليه عيسى بن محمد بقوله:

أتـاي مـن نعـم الرحمـان مولانـا ... لا ينبغـي كُفرهـا سـرًا وإعلانـا
أتـاي مـن أطيـب الأرزاق جـوزهُ ... ديـن قويـم عـن المختـار وافانـا
فالأصل في كل شـيء الإباحـةُ مـا ... لـم يظـهر المنـع تحقيقـا وإتقانـا
أتـاي حلـو حـلال زينـة وردت ... فـي مثلـه آيـة نصـا وتبيانـا
قـد أجمـع المسلمـون اليوم قاطبـة ... على إباحتـه بيضـا وسودانـا
وليـس مـن بعـد ديـن ريبـة وكفى ... بالنـص نهجـا وبالإجمـاع برهانـا
لا يمتري اليوم في استحسانه أحدٌ ... إلا ذوو البخـل أو من كان حيرانـا
به قضى العرف وهو مـن قواعدنـا ... أصـلا إذا وافـق المنهـاج ميزانـا[3]
فالضيـف يبهجـه والخـل يطربـه ... والعرض يحصنـه بالحـزم إحصانـا

---

(1) حمد الله : اسم مدينة تقع في مملكة ماسنة، وهي عاصمتها أيام الشيخ أحمد بري وأولاده، وموسانا جد لعلي بن النجيب.

(2) كان وإنكان : نوع من الكؤوس صغيرة الحجم يستخدمها أهل الصحراء في شرب الشاي، وهي مثل كؤوس الشاي الليبي حاليا.

(3) من قواعدنا : أي معشر المالكية.

فـلا يفـرط فيـه غـير ذي عتـه ... غُمر جهُول عن الخيرات قـد بانـا[1]
ألا فمـن يجتنبـهُ اليـوم قـد نزعـا ... ثـوب المـروءة والإحسـان حرمانـا
مـن كـان ذا همـة فليلتـزم أبـدًا ... تطليـع مغرجـة للنـاس إدمانـا[2]
فهو الضيافة والإحسـان أكمله ... من لم يقدمه للأضيـاف قـد هانـا
ومـن سقى ضيفه كأسا على عجل ... فقد أصاب ولو فـي كـأس إنكانـا[3]
ومـن يـداوم على تعجيلـه كرمـا ... للزائريـن فـلا يعـد خوانـا
ياصاحـب الحـزم لا تتـرك تعاطيـه ... فإنـه يقلـب الأعـداء إخوانـا

❄ ❄ ❄

(1) ذي عته : ذي حمق . والغمر : من لم يجرب الأمور.
(2) تطليع مغرجة: إغلاءه.
(3) إنكان : كأس صغير.